مأوى
الأرواح المنهكة



الإهداء

إلى ذاتي...

إلى تلك التي مشت وسط الظلال دون أن تطلب يدًا،

إلى من حملت الوجع في قلبها وأخفته خلف ملامح عادية كي لا يُلاحظ أحد.

إليكِ يا من كنتِ الرفيقة في الانكسار والسند حين لم يكن هناك أحد

أهديكِ هذه الرواية لأنها تشبهكِ في صمتها، في وجعها، في تلك المحاولات المتكررة للنهوض

حتى حين كانت الأرض أكثر دفئًا من الحياة

وأهديها أيضًا...

لكل من عاش خيبة تشبهها،

لكل قلب تعلّق ثم انكسر،

لكل روح وجدت في الموت راحة،

وفي الفقد صحوة،

وفي الحبّ خنجرًا.

هذه الحكاية ليست للباحثين عن نهايات سعيدة،

بل لأولئك الذين ما زالوا يحاولون أن يفهموا كيف تستمر الحياة...

بعد أن ينتهي كل شيء.

الفصل الأول - هي... ولا أحد يعرفها

لم يكن يعرف اسمها أحد، لكنها كانت موجودة في كل سطر يكتبه، وفي كل صمتٍ يختبئ بين كلمتين.

تجلس دائمًا في الزاوية البعيدة من العالم، حيث لا يصل ضجيج البشر ولا أعين المتطفلين... هناك، حيث تسكن الهدوء وتصادق الوحدة وتنسج من الصمت مملكة لا يدخلها إلا من فهمها دون أن تتكلم.

كانت مختلفة ليست كالبقية تحمل بين ضلوعها جرحًا قديمًا لم يندمل لكنه لم يقتلها.

هي من أولئك الذين يبتسمون قليلًا ويشردون كثيرًا...

تقرأ الروايات وكأنها تبحث عن فصلٍ ضائع من حياتها وتكتب وكأنها تكتب لنفسها التي لم تعد كما كانت.

حين تراها تظنّ أنها هاربة من زمن آخر، زمن كانت فيه المشاعر أنقى والحب أبسط والخيانة أقل.

ظلّ فكرة، طيف ذكرى، لم تقترب من الحب منذ تلك الخيبة، ولم تبتعد تمامًا عنه فقط راقبته من بعيد بصمت الخائف لا بصمت العابر.

ولأنها كانت هكذا، لا أحد استطاع أن ينسى تلك العيون الحزينة التي تخفي ألف حكاية ولا أحد استطاع أن يذكر اسمها... لكنه تذكّر دائمًا كيف شعر حين التقاها.

الفصل الثاني – كيف وقع في حبها

لم يكن اللقاء الأول بسيطًا ولا عبثيًا، بل كان كأن القدر نفسه خطّ له موعدًا مع تلك الفتاة الغامضة.

هو رجل عاش حياته مسرعًا، يبحث عن أجوبة خارجية في كل مكان لكنه لم يجد ما يملأ فراغ قلبه إلا حين مرّت أمامه هي، تلك التي لا تعرف الحب كما يعرفه الناس، لكنها تشع به من أعماق روحها المكسورة. كان يرى في عينيها البحر الهادئ بعد عاصفة طويلة ويشعر بأن في صمتها هزارًا لا يفهمه إلا هو.

رغم بعدها، كان يقف على بعد خطوات قليلة، يتنفس حضورها، يتلمس ابتسامتها الخجولة ويحاول أن يقرأ بين سطور كلماتها التي لا تقولها. كل يوم كان يكتشف فيها عالما جديدا من الوجدان، من الألم والحنان، من القوة والضعف، من الأمل واليأس.

عاش معها لحظات كانت كفيلة بأن تعيد تعريف معنى الحياة، رغم المسافات التي فرّقتها عن الحب الحقيقي، كان هو حاضرًا، ثابتًا، لا يملّ من الانتظار. تعلم كيف يعيش بعيدًا

عنها، كيف يحترم جرحها، وكيف يرسم لهما عالمًا من الأحلام رغم كل شيء.

لكن هل يمكن للإنسان أن يحب من بعيد فقط؟

هل يمكن للحب أن يبقى حكاية صامتة إذا كانت الروح تشتاق للقاء؟

هذه كانت معركته... أن يحبها بدون أن يجرحها، أن يحميها من داخله، وأن يبقى له هو فقط... ذلك الرجل الذي اختار أن يعيش لأجلها، حتى وإن لم تكن له بالكامل.

الفصل الثالث – في ركن المقهى

في إحدى زوايا المقهى القديم، كانت تجلس وحدها، تغمرها أضواء خافتة تنساب عبر النوافذ الكبيرة، وتهب نسمات باردة من الشباك المفتوح قليلاً.

كانت معزولة عن العالم، ترتدي سماعاتها الكبيرة، تغوص في عالم الموسيقى، تنسج منها طوق نجاة من ضجيج الحياة وضوضاء الذكريات. لم يكن أحد يجرؤ على مقاطعتها، فهي كما لو كانت جزيرة صغيرة لا يصلها أحد، تحتمي بصمتها، وتغني في داخلها ألحان الحزن والحنين.

كان هو يجلس على الطاولة المقابلة، ينظر إليها من بعيد، يحاول أن يجد كلمات يكسر بها جدار العزلة الذي حاطها.

قلبه يخفق بشدة، لكن مخاوفه كانت أشد، خوف الفشل، خوف أن ترفضه، خوف أن تجرح أكثر.

كل دقيقة تمرّ كانت تزيد من ثقله على صدره، ومع ذلك، قرر أن يواجه مخاوفه، أن يخوض تلك اللحظة التي قد تغيّر مجرى حياته. رفع رأسه، تنفّس بعمق، وابتسم ابتسامة صغيرة لنفسه، كأنه يمنح نفسه شجاعة إضافية.

قام من مكانه ببطء، خطوته الأولى كانت كأنها تقطع مسافة ألف ميل. اقترب من طاولتها، لا يريد أن يزعجها، لكنه يريد أن يظهر لها أنه موجود، يريد أن يكون لها، حتى ولو لحظة صغيرة.

رفع يدَه ليزيل السماعات برقة، نظرت إليه بعينيها التي تحملان الكثير من الحكايات، تلك العيون التي لم تكن تعرف الثقة بسهولة.

ابتسم لها بابتسامة دافئة، ووضع كوب شاي دافئ أمامها، قائلًا بصوت هادئ:

"أظنّك تحتاجين لهذا".

لم تردّ فورًا، ولكن عيناها التقطتا تلك اللحظة، وقلبها، رغم الجرح القديم، بدأ ينبض بخفة.

بدأ الحديث بسيطًا، عن الطقس، عن الموسيقى التي تسمعها، عن المقهى القديم الذي يبدو وكأنه شاهِد على قصص لا تنتهي.

كانت تردّ بحذر، وكأنها تختبر مدى صدقه، مدى احترامه لزواياها المظلمة.

هو كان يستمع أكثر مما يتكلم، يحاول أن يرى الإنسان خلف الجدار، الشخص الذي خذله الزمن، والذي لم يفقد الأمل كليًا.

مع مرور الوقت، بدأ الحاجز ينكسر، بدأ الكلام يتدفق، والابتسامات تصبح أكثر دفئًا.

لم يكن مجرد لقاء عابر، بل كان بداية لرحلة، رحلة لإعادة بناء الثقة، لزرع بذور الأمل وسط أرض جرداء. كل كلمة يقولها كانت تحمل له رسالة: "أنا هنا، لن أتركك وحيدة".

وهي، رغم كل ما مرّت به، بدأت تستشعر ذلك الأمان، ذلك الحنان الذي طالما افتقدته. في تلك اللحظة، لم يكن هناك خوف، ولا جرح، ولا ألم... فقط وجوده، وجودها، وشاي دافئ يذوب برد الليالي الطويلة.

الفصل الرابع – الصمت والحذر

جلست في زاوية المقهى، عيونها تغوص بين أغانيها، لكنها تسمع كل كلمة ثُقال.

كان صوت الرجل دافئاً، يحمل في نبراته نوعاً من الأمان الذي لم تعشه منذ زمن. هي لم تنطق، لم ترد، فقط استمعت بحذر، وكأن كل كلمة تحوم حولها كنسيم بارد يحميها من أن تُجرح مرة أخرى. جبهتها كانت مرفوعة قليلاً، لكن قلبها ينقبض خلف ذلك الهدوء الظاهر.

كلما حاول هو الاقتراب أكثر، شعرت بحاجز غير مرئي ينشأ بداخلها، حاجز صنعته من ألم ماضيها وحذرها من الحب.

كانت تحاول أن تبني هذا الحاجز كقلعة تحمي نفسها من عواصف العاطفة التي كادت أن تغرقها.

عينها لم تغادر عينيه، لكن لم تكن تثق بعد، لم تكن مستعدة لتسلم نفسها لآخر كان يسعى إلى دفء قلبها.

كانت تستمع لكل حرف، كل نبرة، تحللها بعقلها وقلبها معاً، تحاول أن تفهم إن كان بوسعها السماح لنفسها أن تُفتح من جديد.

مع كل ثانية تمرّ، كان صمتها يعبر عن أكثر مما تستطيع الكلمات قوله. هو شعر بذلك، فكان أكثر رقة، أكثر احتراماً لذلك الصمت، وابتعد عن المحاولات العنيفة لاقتحام عالمها.

الشاي أمامها بدأ يبرد، لكنها لم تهتم، كانت مشغولة أكثر بمحاولة بناء حصن داخل نفسها، حصن لا تسمح فيه للحب أن يدخل إلا إذا كان آمناً. هي لم تسمح للحظة بالانهيار، لم تسمح لألم الأمس أن يسرق منها اليوم لكنها كانت تسمح لنفسها بالاستماع، لأن الاستماع كان بداية فهم، والفهم بداية الشفاء.

وفي ذلك المقهى القديم، حيث اجتمعت الموسيقى، الصمت، والشاي البارد، بدأت قصة هدوء غير مكتمل، قصة حب يتعلم أن يبدأ برقة، وبصبر، وباحترام.

الفصل الخامس – حين تبكي السماء

بدأ المطر يتساقط بخفّة، في البداية كان خفيفًا، وكأنه تحية ناعمة للمساء،

ثم اشتدّ تدريجيًا، وانسابت قطراته فوق زجاج المقهى برنينٍ هادئ، كأن السماء تبكي نيابة عن الذين تعبوا من البكاء.
رفعت عينيها نحو الخارج، وكأنها كانت تنتظر المطر منذ بداية اليوم.

وقفت فجأة، سحبت معطفها، وخرجت دون أن تنطق بكلمة، تركت كوب الشاي كما هو، وصوت الموسيقى لا يزال عالقًا في أذنها. مشت تحت المطر بخطى بطيئة، الرأس مرفوع، لكن داخلها كان ينهار.

كانت دموعها تنزل في صمت، تختلط بقطرات المطر، وتذوب بينها كأنها لم تكن، دموع اختنقت في صدرها طويلًا، ولم تجد لحظة مناسبة للفرار إلا الآن.

تلك كانت طريقتها الوحيدة في البكاء تحت المطر، حتى لا يراها أحد، حتى لا يشعر بها أحد، حتى لا يسألها أحد: "ما بكِ؟" وهي لا تملك إلا الصمت جوابًا.

كان هو واقفًا خلف زجاج المقهى، عينيه لم تغادراها لحظة. يراقب خطواتها الثقيلة، وشعرها المبلّل، وظهرها الذي يهتزّ بصمت كلما انفجرت دمعة لم تعد تستطيع كتمها.

لم يتحرك، لم يجرؤ على اللحاق بها، لكنه شعر بشيء يتغير فيه. شعر أنه لا يعجب بها فقط، بل بدأ يحبها حقًا، حبًا غير أناني، حبًا يرى الألم ويعد بالشفاء، لا الخذلان. وعد في قلبه وعدًا صامتًا:

"لن أكون كغيري... لن أقترب لأكسر، بل لأرمّم.

سأكون الصبر الذي تحتاجه، لن أطلب منها شيئًا... فقط أن تسمح لي أن أبقى."

عاد إلى منزله تلك الليلة والمطر لا يزال يغسل الشوارع.

استلقى على سريره بصمت، والغرفة مظلمة إلا من خياله الذي لا يتوقّف.

كان يفكر...يفكر كيف يمكن لطفلة مثلها، بهذا النقاء، بهذه الهشاشة النبيلة، أن تبقى صامدة في عالمٍ كالح، قاسٍ، مملوء بالفساد والكذب؟

"كيف لم تتلوّث؟ كيف لا تزال تحمل في عينيها صدق الأطفال؟

كيف يمكن لقلبها، رغم ما عاشه، أن يظل يرفض الكراهية ويخاف الحب؟"

في تلك الليلة، لم ينم كعادته، بل قضّى الليل يفكّر كيف يمكنه أن يعلّمها أن الحب لا يُشبِه دائمًا الخذلان وأن هناك من يستطيع أن يلمس جرحك دون أن يؤلمك.

الفصل السادس – ملامح الخطة الأولى

لم يكن من النوع الذي يخطط كثيرًا، لكن هذه المرة، لم تكن كأي مرة. لم يكن أمامه فتاة جميلة فقط، بل كان أمامه إنسانة مرّت بالعواصف، ونجت، لكنها خرجت مبلّلة وخائفة، ترتجف من كل دفء. جلس في سريره، متوسّطًا الظلمة، يحاول أن يرسم خطوات لا تجرح، كلمات لا تخدش، وحضورًا لا يزعج.

لم يكن يريد أن يدخل حياتها كالعابرين، بل كالصبر، كالماء حين يتسرّب من بين الشقوق دون أن يكسّرها.

"لن أراسلها، لن أضغط... سأعود لنفس المقهى غدا سأجلس في الزاوية،

وأترك مقعدًا فارغا لعلها تعود... أو لعلّ قلبها يلاحظ أني لم أرحل."

تخيّل ابتسامتها الصغيرة وهي تقول له "إلى اللقاء"،

تخيّل كيف وقفت، وكيف مشت تحت المطر، وكيف دموعها كانت تشبه الطفولة حين تضيع منها اللعبة المفضلة.

هو لا يريد أن يكون لعبة...يريد أن يكون حضنًا، أن يكون صديقًا للجرح لا سببًا فيه. أخذ ورقة، وكتب عليها جملة واحدة فقط: «أنا هنا... حتى لو لم تنظري إليَّ."

غدًا، سيترك الورقة على طاولتها، إن عادت. وإن لم تعد... فسيبقى، يومًا، اثنين، ألفًا إن لزم الأمر. فهو أخيرًا... وجد فتاة لا يودّ أن يخسرها.

الفصل السابع – ارتباك الصمت

لم تنم تلك الليلة. جلست أمام نافذتها، تنظر إلى الشارع المبتلّ، والمصابيح المرتعشة في البرد، كأن العالم كله يرتجف من فكرة البقاء. مازالت تشعر بثقل نظراته... لم تكن نظرات رجلٍ يلاحق، بل نظرات روحٍ تبحث عن مأوى. كانت نظراته تشبه الأسئلة التي لم تجد لها إجابة بعد. في داخلها، معركة صامتة تدور.

صوت يقول لها: "لا تعودي، تذكّري كم مرّة سقطتِ."

وصوت آخر، أهدأ أخفّ يقول: "لكنه لم يحاول أن يأخذ شيئًا، فقط جلس وانتظر."

هي لم تتعود أن ينتظرها أحد كل الذين مرّوا، مرّوا بسرعة دخلوا بعنف وخرجوا بهدوء قاتل.

لكن هذا الغريب جلس وحدّق في جدارها ولم يحاول كسره. في ذهنها ابتسامتها الأخيرة تلمع.

كم كانت صغيرة تلك اللحظة لكنها أرعبتها. أرعبتها لأنها كانت حقيقية، لأن قلبها فيها تحرّك رغم كل الجدران التي بنتها من حوله.

قامت فجأة، مشت في غرفتها بلا وجهة كأنها تهرب من فكرة صغيرة بدأت تكبر. فتحت دفترها القديم الذي تخبئ فيه كل ما لا تستطيع قوله وكتبت:

"لا أعرف من يكون لكنّ في حضوره شيء يربكني، شيء لا يؤذيني وهذا هو الخطر."

"أنا خائفة من الأشياء الهادئة خائفة من الأشخاص الذين لا يطلبون شيئًا غالبًا الأصدق."

أغلقت الدفتر، وخبّأته في مكانه. ثم وقفت أمام المرآة، لا تضع مساحيق، ولا ترتب شعرها فقط وضعت وشاحها الرمادي وخرجت.

الفصل الثامن – المقعد الفارغ

في صباح رماديّ، لا هو شتاء ولا ربيع، خرجت من البيت. لم تجهّز نفسها، لم تفكر في الماكياج أو ترتيب شعرها كل ما فعلته أنها ارتدت معطفها الطويل، وشدّت وشاحها حول رقبتها، كأنها تلتفّ على قلبها قبل رقبتها. خطواتها كانت بطيئة، فيها تردّد، لكنّها لم تتوقّف.

كانت تمشي في نفس الطريق نحو نفس الزاوية نحو ذلك المقهى القديم الذي صار يشبهها أكثر من أي شيء آخر.

وصلت... توقفت للحظة عند الباب، أغمضت عينيها ثم دفعت الزجاج ودخلت

لم يتغير شيء، لا الطاولات، لا الضوء، لا رائحة القهوة. لكن شيء داخلها كان مختلفًا.

نظرت نحو الزاوية اليسرى، نفس الطاولة، نفس المقعد وكان هو هناك.

جالسًا، لا يحمل هاتفًا، ولا كتابًا، فقط ينظر نحو الفراغ أمامه كوب شاي يبرد بهدوء، ومقعدٌ آخر فارغ.

حين لمحها، لم يبتسم بسرعة، لم يقفز واقفًا، فقط رفع عينيه، وبقي ينظر، كأن قلبه تكلّم بدل لسانه.

نظرة هادئة، ساكنة، تقول: «أنا هنا، كما وعدت."

هي أيضًا لم تبتسم، ولم تسرع إليه. لكنها مشت نحوه، وجلست دون أن تقول شيئا. نظرت إلى الشاي أمامها، ولم تلمسه، ثم رفعت عينيها إليه وقالت بهدوء:

"ظننت أن المقعد سيكون خاليًا."

أجابها بعد صمت قصير: «وأنا ظننت أن الغياب سيطول أكثر."

ثم صمتنا...صمت طويل، لكنه لم يكن ثقيلًا، بل كان مثل المطر ساكن، مستمر، يملأ الفراغ دون ضجيج.

في تلك اللحظة، لم تكن عودة كاملة، ولم تكن بداية رسمية، لكن كانت خطوة صغيرة، صادقة، مليئة بالتردد والأمل في نفس الوقت وكانت كافية.

الفصل التاسع – الورقة التي لم تُقرأ

لم تكن نيّتها أن تجلس طويلًا، ولم تأتِ لتفتح بابًا جديدًا، بل فقط لتختبر نفسها هل لا تزال تخاف القرب؟ هل لا يزال الحزن أقوى من كل احتمال للدفء؟

كانت أمامها ورقة مطويّة، صغيرة، موضوعة بعناية على طرف الطاولة. لم تلمسها في البداية، نظرت إليها فقط كأنّها تخاف أن الكلمات تفضحها. ثم أخذت كوب الشاي البارد أمامها، ورفَعَته إلى شفتيها دون تفكير، وشربته دفعةً واحدة، كأنها تبتلع معه كل ما لم تقله.

بعدها، مدت يدها نحو الورقة، وضعت أصابعها عليها بلطف، ثم اختطفتها بسرعة، ووضعتها في جيب معطفها دون أن تفتحها. دون أن تقرأها.

نهضت بعدها مباشرة، لم تترك كلمة، ولا نظرة، ولا حتى تنهيدة. خرجت ومشت كما جاءت صامتة، متعبة، لكن هذه المرّة... أكثر وعيًا بارتباك قلبها.

لم يتحرك، لم يلحق بها، لم ينادها، لم يسأل حتى إن كانت ستعود. كل ما فعله أنه بقي في مكانه، يراقب المقعد الذي فرغ من جديد لكنّه هذه المرّة لم يكن فارغًا تمامًا.

في جيبها الورقة. وفي قلبه يقين بسيط يقول:

"هي لم تترك الورقة... هذا يكفي الآن."

في الخارج، كانت تمشي دون أن تعرف أين تمضي. الورقة في جيبها تحترق دون نار، تحسّ بها، تعرف أنها ستقرأها لاحقًا حين تكون مستعدّة، حين لا تبكي من أبسط كلمة، ولا ترتجف من دفء مفاجئ.

لم يكن انسحابًا، بل هروب مؤقت من الشعور.

وكان هو يفهم ذلك...

الفصل العاشر – جسد في المكتب، قلب في المقهى

غادر المقهى بعدما غابت هي في الزحام. كان المطر مازال خفيفًا، لكن داخله، كانت العاصفة مزيج من ارتباك، وخوف، ورغبة صامتة في أن تكون تلك اللحظة ليست الأخيرة. ركب الحافلة، جلس قرب النافذة، وظلّ يتأمّل الطريق

لكنه لم يكن يرى الشارع، كان يرى ملامحها، وصوت صمتها، وارتباك عينيها حين أخذت الورقة دون أن تنظر إليه.

وصل إلى المكتب، المبنى الرمادي، الطابق الثالث، حيث الأوراق المكدّسة،

والملفّات المتأخرة، والوجوه المتعبة من التكرار. جلس وراء مكتبه، فتح الحاسوب، قرّب فنجان القهوة، لكنّه لم يشربه، نسيه مثلما نسي الملفات المفتوحة أمامه. كان يحاول أن يكتب تقريرًا، لكن يده تتوقف في كل سطر، يتذكّر نظرتها كيف هربت منها لتختبئ في الأرض.

يتذكّر كيف لم تقل شيئًا لكن قلبه سمع كل شيء. زميله يسأله عن جدول الاجتماع، يردّ عليه بابتسامة باهتة: "مازلت نحضّر فيه."

وهو في الحقيقة مازال يحضّر روحه لفهم ما حدث بينه وبينها.

في الجانب الآخر من المدينة،

كانت هي ترتدي معطفها وتخرج نحو الجامعة، مثل كل صباح، بنفس العزيمة.

تحلم بأن تصبح مهندسة، تحلم بأن تكون امرأة قوية، صلبة، دقيقة كأرقامها. لكن هذه المرّة، كانت خطواتها نحو الجامعة ثقيلة، وعقلها لا يفكر في محاضرة اليوم.

تفكّر في كوب الشاي الذي تركته، وفي الورقة التي حملتها دون أن تقرأها أمامه.

تفكّر في نظراته، التي لم تطلب شيئًا، لكنها قالت: "أنا هنا إن احتجتِ."

جلست في مدرج الجامعة، فتحت دفتر الرياضيات، لكن قلبها بقي مغلقًا هناك، في زاوية مقهى، حيث جلس رجل، لا يشبه البقيّة.

كانا في مكانين متباعدين، هو في مكتبٍ رمادي، يكتب عن خطط لا تهمّه، وهي في قاعة بيضاء، تحلّ مسائل ليست أصعب من المسألة اللي بداخلها.

لكن قلبيهما؟ يلتقيان، في منتصف الغياب، وفي خيالٍ لا يعترف بالمسافات.

الفصل الحادي عشر – الليل الذي لم يجمعهما

في تلك الليلة الباردة، عاد المطر يسقط من جديد. كأنه لم يكتفِ بما فعله بالأمس، أو كأنه جاء ليذكّر القلوب التي ترتجف في الظلّ، بأنّ الشعور لا يُدفن مهما حاولنا. هو، كان هناك. في نفس المقهى، نفس الزاوية، نفس المقعد. جلس ينتظرها. لا برسالة، ولا بنداء، فقط بانتظار يشبه الصلاة. كوب الشاي أمامه بدأ يبرد ببطء، وكل دقيقة تمرّ كانت تشبه انسحاب ضوء من قلبه. لكنه بقي، عيناه على الباب، قلبه معلق بورقة يعرف أنها بين يديها الآن ولعلّها قرأتها.

هل فهمت؟ هل خافت؟ هل لمست صدقه؟

أسئلة تمشي بداخله دون إجابة، وهو لا يريد منها شيئًا... فقط حضورًا. مرت الساعة تلو الأخرى، الليل يتعمق، والمقهى بدأ يفرغ، إلا منه ظلّ هناك، يراقب الباب كأنّه آخر أمل. لكنها لم تأتِ.

وفي زاوية أخرى من المدينة، كانت هي واقفة تحت عمود ضوء قديم، المطر ينهمر عليها بصمت، وشعرها يلتصق بجبهتها، ومعطفها الثقيل يزداد وزنًا بكل قطرة. لم ترد أن

تحتمي. أرادت أن تشعر بكل شيء بالماء، بالبرد، بالحياة التي صارت لا تشبهها.

كانت الورقة في حقيبتها، وقد قرأتها منذ ساعات، ولم تقرأها فقط، بل شعرت بها تخترق شيئًا ما داخلها، كأنّها تلمس جرحًا لم يتجرأ أحد على لمسه بهذه الرقة. لكنها لم تذهب إليه.

لماذا؟

ربما لأنها خافت، ربما لأنها شعرت أنه أقرب مما ينبغي، وأن قلبها ليس جاهزًا بعد لتجربة أخرى، حتى وإن كانت هذه المرة مختلفة. وقفت هناك، تحدّق في الرصيف، وتراقب المطر وهو يغسل المدينة ويتسلّل إلى قلبها دون إذن.

لم تبكِ. ولم تضحك. فقط شعرت بأنها على حافة شيء جديد، ولكنها لم تستطع القفز. ظلت واقفة تحت المطر إلى حدود الحادية عشر ليلًا. ثم استدارت، ومشت نحو بيتها بصمت، والقطرات تقطر من أطرافها كأسرار لم تُقل...

في المقهى، كان هو لا يزال هناك، المكان بدأ يُغلق، والنادل ينظر إليه بشيء من الحيرة. لكنه لم يتحرك حتى شعر أن المكان لم يعد يحتمل انتظاره. حين نهض، لم يغضب. لم

يلعن الانتظار، ولا غيابه. بل فقط نزلت دمعة من عينه، دمعة واحدة، لم تكن من خذلان، بل من أمل مؤجل. خرج من المقهى، الساعة تقترب من منتصف الليل، والمطر لا يزال يسقط برقة من السماء. مشى ببطء، يحمل داخله أكثر من تعب، لكنه كان يحتفظ بابتسامة صغيرة، شاحبة، يخفيها عن المارّة، كأنها سرّ لا يجوز أن يُقال.

عاد إلى بيته حوالي الثالثة صباحًا. لم يبدّل ملابسه فورًا، لم يشعل النور، ولم يجلس حتى. دخل الحمّام، وفتح الماء البارد، وقف تحته طويلًا، كأنّه يغسل الانتظار، والغصة، وأملًا لم يمت. خرج، مسح وجهه، ونظر إلى المرآة رأى التعب، لكن لم يرَ اليأس. ارتدى ملابسه من جديد، أخذ مفاتيحه، وغادر البيت قبل أن يطلع الفجر، في وقت لم يعتد أن يخرج فيه. وصل إلى مكتبه مبكّرًا جدًّا، فتح الباب، جلس على الكرسي، ووضع كوب القهوة أمامه، لكنّه لم يشرب.
نظر من النافذة، والضوء الرماديّ للصبح يتسرّب ببطء.
همس لنفسه: "ربما... تأتي غدًا."

اما هي رغم كل ذلك، رغم الليل الطويل الذي لم تعرف فيه نومًا، رغم الدموع التي لم تسقط من عينيها لكنها سقطت من داخلها ورغم الوحدة التي نامت بها نهضت صباحًا، كما تفعل

كل يوم، وقفت أمام المرآة، نظرت إلى وجهها الشاحب، إلى آثار التعب تحت عينيها، إلى شعرها المتشابك، وإلى تلك النظرة التي كانت تفضح أكثر مما تخفي.

غسلت وجهها بماء بارد، كأنها تحاول أن تطفئ نارًا داخلية لا أحد يراها ثم أمسكت المنشفة ببطء، ومسحت الحزن عن ملامحها، كما لو أنه شيء يمكن إزالته ببساطة. تأمّلت نفسها للحظة ثم رسمت تلك الابتسامة، الابتسامة التي لا تُشبه الفرح أبدًا، لكنها أصبحت تعرف كيف ترتديها، ابتسامة فيها من الإنهاك ما يكفي لإسقاط جبال، وفيها من العناد ما يكفي للنهوض من تحت الركام، وفيها من الصمت ما يغني عن كلّ حديث.

ارتدت معطفها، وضعت السماعات في أذنيها واختارت أغنية لا تُبكي ولا تُفرح فقط ترافقها في المسير. أغلقت باب غرفتها ثم باب بيتها، ومشت نحو الجامعة، تسير بين الناس وكأن لا شيء حدث وكأنها لم تقف تحت المطر ساعات، ولم تفلت فرصة، ولم تترك قلبًا ينتظر في زاوية دافئة. لكن هي فقط تعرف أن خطواتها اليوم أثقل من المعتاد وأن حقيبتها تحمل أكثر من الكتب تحمل ورقة ورسالة وأملًا صغيرًا تحاول إخفاءه عن العالم لكنها لا تنجح تمامًا.

الفصل الثاني عشر – حين قررت أن تُجرب النور

كان الدرس في منتصفه والكلمات تنساب من فم الأستاذ بلا روح تسقط على الطاولة أمامها كحروف جامدة لا تصل. جسدها حاضر لكن ذهنها يتجوّل في المقهى في نظراته، في الورقة، في الشاي الذي برد كما بردت ليلتها وفي الانتظار الذي لم تنتظره لكنه انتظرها.

فجأة، ودون سابق إنذار وقفت نعم ببساطة وقفت كأن شرارة داخليّة أحرقت جدار الخوف الذي بنته حول نفسها لسنوات كأن شيئًا في قلبها صرخ الآن أو أبدًا. صوت الكرسي وهو يتحرّك جذب أنظار الجميع الطلاب التفتوا إليها بدهشة، حتى الأستاذ سكت فجأة وكأن الزمن توقّف ليسمع ماذا ستفعل. لكنها لم تنظر لأحد، كانت تنظر بعيدًا، إلى ما بعد النوافذ، إلى المكان الذي لم تعد تقدر أن تتجاهله أكثر.

جمعت كتبها بعجلة أدخلتها في حقيبتها بطريقة غير مرتبة وخرجت من القاعة دون أن تعتذر دون أن تشرح، خرجت تركض ولأول مرة كانت تركض نحو شيء لا تهرب منه، بل إليه.

المطر كان قد خفّ، لكن السماء لا تزال محمّلة بالحزن. ركضت حتى وصلت إلى المقهى دخلت وأنفاسها متقطعة، عينيها تبحثان بسرعة عن الطاولة نفسها،

الزاوية نفسها.

جلست وضعت حقيبتها جانبًا سحبت نفس الكرسي ونظرت نحو الباب، كأنها متأكدة أنّه سيُفتح به كانت يدها ترتجف قليلاً لكن عينيها ثابتتان. كان في جلستها تصميم نادر، تصميم امرأة تعبت من الجري وقررت أن تنتظر ولو مرة.

مرّت ساعة ثم اثنتان الناس في المقهى تغيروا، الضوء تغيّر حتى صوت الموسيقى تبدّل. لكنّها لم تتحرك، كل من رآها أحسّ بأنها تنتظر أحدًا وكل من رأى عينيها فهم أنّها لا تنتظر أيّ أحد، بل بالضبط شخصًا واحدًا.

كان هو ينهض من سريره بعد نوم متقطع، الساعة تشير إلى العاشرة مساءً. لبس معطفه، ربط وشاحه وسار نحو المقهى ربما بدافع العادة وربما لأنه لم يستطع أن يمنع قلبه من الذهاب إلى حيث ينتظر المستحيل. دخل المكان كان الجوّ دافئًا كما تركه لكنّه لم يتوقّع ما رآه في نفس الزاوية جالسة وعيناها تسبقه.

للحظة، توقّف الهواء. توقّف النبض. وتوقّف هو.

لم يصدق لكنها لم تبتسم ولم تدمع فقط نظرت إليه نظرة صامتة عميقة كأنها تقول: "أتيت فهل ما زلت هنا؟"

اقترب بخطى بطيئة وجلَس، لم يتكلّما لكنّ صمت المكان تغيّر صار أخفّ وأدفأ

كأنّ الأرواح التقت أخيرًا بعد طول دوران. ابتسم ابتسامة صغيرة ثم همس:

"كنت أعلم أنك ستأتين لكني لم أعلم أني سأفرح هكذا."

أغمضت عينيها للحظة ثم فتحتها ببطء وقالت بصوت خافت: "أنا أيضًا لم أعلم أني ما زلت أملك قلبي."

ابتسمت هي بهدوء، نظرت إلى يديها ثم إلى كوب الشاي الذي أمامها لم تكن قد طلبته لكنّه جاء كأن النادل حفظ عاداتها أو كأن المكان حفظها.

لم يسألها: "أين كنتِ؟"

ولم تقل له: "انتظرتك."

لكنّهما كانا يعلمان أن الانتظار كان متبادلاً حتى وإن اختلفت الساعات.

مرت لحظات من الصمت ثم قالت بنبرة خافتة كأنها تخاف أن يسمعها قلبها: «لا أجيد البدايات، دائمًا أخطئ فيها."

فردّ بهدوء وصوته يشبه حضنًا دافئًا: "وأنا لا أخاف من الأخطاء، أخاف فقط ألا نمنح أنفسنا فرصة المحاولة."

نظرت إليه طويلًا كأنها تنظر إلى شيء تعرفه منذ زمن لكنها لم تجرؤ على الاعتراف به.

قالت: "أنا خائفة."

ابتسم وأجابها بلين: "خافي لكن لا تهربي."

سكتت قليلاً ثم وضعت يدها على الورقة في حقيبتها أخرجتها ووضعتها على الطاولة بينهما.

نظرت إليه وقالت: "هذه لم تكن مجرّد كلمات... كانت نافذة."

ومأ برأسه وقال: "وأنا كتبتها لأني كنت أختنق من الصمت."

سكتت مرة أخرى ثم تنفّست بعمق كمن قرر أخيرًا أن يغوص في المجهول:

"أنا لا أعدك بشيء فقط أعدك أن أحاول."

ارتسمت على وجهه ابتسامة صافية أخذ كوبه بهدوء رفعه نحوها وقال: "ولأجل المحاولة نخب المطر الأول."

ضحكت ضحكة خفيفة لكنّها حقيقية. كانت المرّة الأولى التي يراها فيها تضحك

وكانت المرّة الأولى التي تضحك فيها دون أن تخاف أن تكشف هشاشتها.

خارج المقهى المطر عاد لكنّه لم يكن حزينًا هذه المرة، كان يشبه بداية جديدة.

هو لم يرد منها وعدًا ولا ردًا، ولا حتى اعترافًا، فقط قرر أن يكون هناك كجسر بينها وبين الحياة كأنها مسؤوليته لا بوجوبٍ ثقيل، بل بعاطفة عميقة تشبه الرفق.

منذ تلك الليلة أصبح يراها كل يوم بشكل مختلف وكأن كل لقاءٍ معها يكشف لونًا جديدًا في قلبها لونًا كانت قد نسيته...

تلك الليلة وجدت رسالة نصية على هاتفها "ما رأيكِ أن نغيب اليوم عن كل شيء ونذهب حيث لا ينتظرنا أحد؟" لم تترك جوابا، فقط اكتفت بتأمل الرسالة. في صباح اليوم التالي كانت الشمس تتسلل بهدوء من خلف الستائر وأول فكرة راودتها

حين استيقظت لم تكن الجامعة ولا جدول الدروس، بل فكرة ذاك العرض الغريب الذي قدّمه لها بكل عفوية:

"نغيب عن كل شيء... ونذهب حيث لا ينتظرنا أحد."

هي فتاة لا تحبّ الروتين لكن الحياة بخيباتها المتتالية جعلتها تسكن في كهف من التكرار تخاف الخروج منه، حتى لو كانت تعرف أن خلف الجدار ثمّة ضوء.

لبست ملابسها بهدوء اختارت وشاحًا ناعمًا وعطرًا خفيفًا يشبهها ثم خرجت لا نحو الجامعة، بل نحو الحياة. كانت مدينة الملاهي أوّل محطة، ضحكات الأطفال أصوات الألعاب، هواء يحمل عبق الحلوى وصرخات المفاجأة. كل شيء بدا لها غريبًا كأنها تزور عالما نسته منذ سنوات.
رافقته بصمت أولًا لكنّه كعادته لم يترك مجالًا للهدوء قال لها بابتسامة طفولية: "هل تجرئين على الركوب معي؟"

رفضت في البداية ثم استسلمت وركبت العجلة العملاقة.

حين بدأت العجلة ترتفع أمسكت بذراعه دون وعي ثم أغمضت عينيها وهمست:

"أنا لا أحب المرتفعات."

ابتسم وقال: "وأنا أحب أن أراك تتخطين خوفك."

فتحت عينيها نظرت إلى المدينة من الأعلى ثم إليه وقالت مبتسمة: "أنت مجنون."

ضحك وقال: "ربما لكني أريد أن أراك تضحكين حتى الجنون."

مرّت أيام قليلة بعد تلك الرحلة لم يتكلموا كثيرًا عن اليوم الذي قضياه معًا لكن شيئًا تغيّر بينهما، الحديث صار أهدأ، النظرات أطول والصمت لم يعد ثقيلاً، بل مريحًا كأنها لغة خاصة بين قلبين يتعلّمان كيف يقتربان.

وفي مساء رمادي وبدون تخطيط، أرسل لها رسالة قصيرة: "هل ترغبين بالمشي قليلًا؟ البحر اليوم صامت مثلك." وافقت دون تردد هذه المرّة.

كان الشاطئ خاليًا تقريبًا الموج يهمس والريح تعبث بخصلات شعرها كما لو تُداعب وجعًا قديمًا. نزعت حذاءها ومشت على الرمل البارد، توقفت فجأة ثم صرخت بصوتٍ لم تتوقعه حتى هي، صرخة لم تكن غضبًا ولا يأسًا، بل تحرّر.

لم يقل شيئًا فقط اكتفى بالنظر إليها كمن يرى معجزة تتشكل أمامه.

جلسا على الرمل معا ثم قال بهدوء: "حين تصرخين هكذا أشعر أن قلبي يتنفس معك."

نظرت إليه وهمست كأنها تخاطب الموج: "أريد أن أعيش وإن تعثرت.

فجأة كسر الصمت وقالت له بابتسامة طفولية وبتحدٍ: "أنت مجنون."

ابتسم وقال: "أعلم... لكني مجنون لأنني أريد أن أريك كيف يمكن للحزن أن يهرب منك ولو للحظة."

هزّت رأسها وقالت بضحكة خفيفة: "والله عيبك الوحيد إنك تصدق أنك بطل "

ضحك هو بهدوء: "لست بطلًا فقط رجل قرر ألا يترك امرأة تنطفئ وحدها."

نظرت إليه بصدق: "أنا لست قوية الكثير تحطم في داخلي، وأنا تعبت من محاولة اصلاحه وحدي."

همس لها بابتسامة دافئة: "لا يجب أن تكوني قوية لأجلي يكفيني صدقك."

خفضت عينيها وقالت برقة: "أحيانًا أحس أني دخيلة على هذا العالم كأنّي لا أنتمي لأي مكان."

ابتسم وقال: " انتمي لي أنا لا يلزمك فهم الكون يكفي أن تكوني معي."

جلست على الرمل بجانبه تحت سماء شتوية مُلبدة بالغيوم، كان يرتجف جسدها قليلاً من نسيم الليل البارد فأخذ معطفه ووضعه حول كتفيها كأنّه يهمس لها بأمان لا يذوب مهما اشتد البرد. الموج يتلاطم بهدوء ورذاذ البحر يختلط مع قطرات مطر خفيفة تتساقط بلا انقطاع، يحمل معه عبق البحر المالح وندى الشتاء يُذكّرها بأن الطبيعة لا تزال حية رغم برودة الليالي.

هي تتنفس ببطء تشعر بأن البرودة تعيد ترتيب أجزائها كمحاولة للصمود، تدفعها رغبة خفية في أن تبدأ من جديد حتى وإن كان الشتاء يغلف قلبها بالبرد.

هو لا يطلب منها أن تكون قوية، بل فقط أن تسمح للدفء أن يخترق بردها، أن يرافقها في رحلة إعادة اكتشاف نفسها بخطوات هادئة، متأنية كأنه شمعة صغيرة تنير في عتمة الليل.

مع كل لحظة تمر مع كل همسة موج تشعر بأن قلبها يذوب قليلاً، تتخلّى عن الحواجز تتفتح كزهرة برّية في منتصف الشتاء، تحاول أن تعيش أن تتنفس، أن تجد في الشتاء شيئًا لا يُنسى، بداية جديدة...

وبين همسات الأمواج ورذاذ المطر الخفيف وجدت نفسها بلا وعي تستند عليه،

رأسها يهبط برقة على كتفه كالزهرة التي تبحث عن دفء في برد الشتاء القارس. جلس ساكنًا للحظة، ذهول عميق يخيم على ملامحه، توقف الزمن أمام تلك اللحظة الصغيرة حيث أذعن قلبها الصامت وأبدى ثقته به.

لم يكن بحاجة إلى كلمات فالصمت بينهما كان أبلغ من كل حديث، دفء جسده يحتضن برودة قلبها وصوت البحر يهمس بأنّ الفصول مهما تبدلت تبقى فرصة للولادة من جديد.

جلسا هكذا وسط رذاذ الشتاء والليل الهادئ يحتضنان ما تبقى من جروح الماضي ويبدآن برسم صفحة جديدة، صفحة خالية من الخوف، مفعمة بالأمل...

الفصل الثالث عشر- نور الثقة

مرّت الأيام ببطء حاملةً معها نسائم جديدة في حياة الفتاة التي عاشت طويلاً خلف جدران خوفها وألمها.

لم تعد وحدها كما كانت فقد أصبح ذلك الرجل الحنون رفيقًا لا يغادرها مصدر أمان جعلها تشعر بأن ثقتها بنفسها بدأت تعود من جديد فهو لم يطلب منها المستحيل، لم يضغط عليها كي تتغير فجأة، بل كان يصغي لصمتها يحتوي كل هدوء وجزع داخلها ويشجعها بخطوات صغيرة بلحظات بسيطة يكشف لها من خلال أفعاله أن الحياة لا تزال تستحق أن تُعاش وأنها تستحق أن تحب نفسها أولاً.

كانت تتعلم أن تعيش مع جراحها، لا تختبئ منها، تبدأ بالوقوف أمام المرآة، ترى صورة مختلفة شيئًا فشيئًا، تلمس يدها كأنها تذكرها بأنها موجودة، حقيقية، قوية رغم كل شيء.

بفضله بدأ قلبها ينبض بشيء جديد حب لم يكن يشبه ما عرفته من قبل، حب لا يخاف أن يكون هشاً، بل يقبل أن ينمو ببطء، بحذر، حب يبدأ بلحظات صمت ومشاركة بحركات صغيرة وابتسامات خجولة.

كانت في كل يوم تكتشف فيه جوانب جديدة من نفسها وترى في عينيه تأكيدًا بأنها تستحق السعادة وأن ثقتها بها ليست مجرد حلم، بل حقيقة تكتبها الأيام بقلم الأمل.

ومع كل إشراقة شمس، كانت تلك الفتاة تنمو، تخرج من ظل الخوف إلى ضوء الحياة، تتعلّم أن تحب ليس فقط من يحبها، بل أن تحب نفسها أولاً وأن تسمح للحب أن يدخل قلبها كزهرة تبدأ بالتفتح بعد طول برد الشتاء.

اما هو كان يراقبها بصمت، يرى في عينيها ذلك الوميض البعيد الذي كان يخفيه خلف غشاء الخوف والحزن لفترة طويلة. كانت خطوة صغيرة لكنها كانت بالنسبة له نصرًا عظيمًا. في كل مرة كانت تنظر إليه بنظرة مختلفة يشعر بأن قلبه يملأه دفء غير مألوف، دفء يمنحه معنى جديدًا للحياة وكأنه مسؤول عن زهرة تنمو تحت يديه تحتاج إلى عناية وصبر. لم يكن يريد استعجال الأمور، بل كان يتعلم معها لغة الصبر، يحترم هدوءها ويحتضن لحظات ضعفها كما يحتضن النسيم البارد في ليلة شتاء قارس، يقدم لها وجوده كحصن آمن.

كان يشعر أحيانًا بثقل المسؤولية لكن ذلك لم يثنه، بل زاده إصرارًا على أن يكون لها ملجأ يحنو عليها دون أن يطلب

مقابلًا، يحبها ليس من أجل أن يملكها، بل ليحررها من قيود ماضيها. يرى في عينيها الأمل الذي يزرعه كل يوم ويعرف أن حبها قد بدأ يزهر، حب بسيط نقي ينبثق من ثقة بدأت تُبنى، فهو مستعد أن يسير معها في هذا الطريق مهما طالت المسافة، لأنه وببساطة وجد فيها معنىً للحياة، ولأنها أعادته هو الآخر إلى الحياة من جديد.

الفصل الرابع عشر – حين ينطق الصمت

كانت السماء رمادية، الشتاء لا يزال يفرش برده على الأرصفة والقلوب، لكن في داخلها شيء بدأ يذوب كأن روحها تستعد للانعتاق.

جلسا سويًا في نفس المقهى الذي جمعهما أول مرة، المكان لم يتغير الطاولة في الزاوية، نفس الركن ونفس الشاي الذي برد سريعًا كما اعتادا. لكن شيئًا في الجو كان مختلفًا.

هي لم تعد كما كانت لم تعد تنظر للأسفل طوال الوقت، وجهها لم يعد يخفي كل شيء خلف صمت ثقيل. كانت تجلس مستقيمة وعيناها ترتجفان، وهو كان يعلم أنها في طريقها لقول ما لم يُقال.

لم يضغط عليها فقط اكتفى بأن ينظر إليها بتلك النظرة الهادئة التي تشبه حضنًا مفتوحًا. فجأة، تنفست بعمق ثم وضعت يديها على الطاولة، نظرت إليه مطولًا كأنها ترى فيه المرآة التي تعكس حقيقتها العارية.

لم تقل الكثير لكن ملامحها قالت كل شيء الخذلان، الألم، الخوف، الوحدة...

كلها اجتمعت في نظرة واحدة ثم تلاشت عندما ابتسمت.

في تلك اللحظة، عرف أنها تخطت، تخطت الخوف من نفسها، تخطت ظلال من خذلوها وتخطت الجرح القديم الذي كانت تمشي به منذ سنين.

والأهم أنها فتحت الباب، باب قلبها. أما هو فكان ينتظر هذه اللحظة منذ البداية.

لم يكن يريد منها شيئًا سوى أن تتصالح مع ذاتها أن ترى نفسها بعينيه.

اقترب منها قليلاً وبصوت لا يسمعه غير القلوب قال شيئًا لم يكن بحاجة أن يُنطق، شيئًا وُلد من النظرات من المرافقة من الحنان. ربّت على يدها برقة لم تسحبها هذه المرة، بل أبقتها مكانها وكأنها تقول: أنا هنا معك.

الشتاء في الخارج كان باردًا لكن في داخلهما أزهرت فصول أخرى أكثر دفئًا

أكثر صدقًا وأكثر حياة. تلك اللحظة كانت كل شيء، كانت اعترافًا بلا كلمات واستسلامًا بلا خجل، كانت نهاية الخوف وبداية الأمان. اما هو لم يتحرك بسرعة، لأنّه يعلم أن أعمق المشاعر لا تحتاج إلى استعجال، فقط حدّق في عينيها كما لو

أنه يبحث فيهما عن تفاصيل قصتها التي لم تُحكَ كاملة ثم بصوت خافت كأنه يخشى أن يوقظ خوفًا فيها قال: "كنت أراك تنهارين بصمت وكنت أنتظر أن تلتفتي فقط مرة وتري أنك لستِ وحدك."

لم تُجبه لكن عيناها امتلأتا بالدموع، دموع لا تشبه تلك التي عرفها من قبل هذه لم تكن دموع حزن، بل راحة كأنها ولأول مرة أسقطت عنها ثقل العالم ثم همست بصوتٍ مهتز لكنه نقي: " خفت... خفت منك وخفت مني وخفت أن أصدّق أن أحدًا يمكن أن يبقى."

كان يراها تفتح قلبها لا دفعة واحدة، بل كما يُفتح باب قديم ثقيل ببطء، بحذر وبكل ما فيها من ارتجاف.

لم تقل "أنا أحبك"، لكن الاعترافات لا تكون دائمًا بتلك البساطة.

أحيانًا، تكون بدمعة تُمسَح على استحياء بيد لا تُسحب وبنظرة تقول: "أنت بيتي."

أما هو فقد ابتسم ابتسامة من فهم لا من انتصار ثم ردّ دون أن ينطق: "أنا هنا وسأبقى، حتى لو ارتجف قلبك ألف مرة."

في تلك اللحظة لم يكن بينهما سوى فنجان شاي بارد وصمت دافئ وشعور واحد، واضح وهادئ اسمه "حب"...

الفصل الخامس عشر – الرحيل الهادئ

كان صباحًا شتويًا، باردًا، رماديًا، من تلك الصباحات التي لا توحي بشيء غير العادية. الساعة تشير إلى السابعة، المدينة بدأت تستيقظ، الأرصفة تبللها الأمطار الخفيفة والناس يركضون للحاق بيوم جديد.

لكن في غرفة صغيرة تحت غطاء دافئ، كان هو لا يتحرّك. لم يكن ثمّة ضجيج ولا شهقة ولا وداع... فقط نومٌ عميقٌ لا يُشبه كل ما قبله. كانت هذه المرّة مختلفة لم ينهض كعادته ليكتب لها صباحًا جديدًا ولا أعد فنجان قهوته ولا فكر كيف سيرسم على وجهها ابتسامة أخرى. لأنّه كان قد انتهى...انتهى من مهمته.

نعم، لم يكن يعلم أن الرحيل قريب لكنّ قلبه كان يعرف أنه ترك شيئًا لا يُمحى.

ترك فيها نورًا صغيرًا، ثقةً لم تكن تملكها وشعورًا بالح لم يكن هشًّا، بل نقيًا.

غادر كما يعيش الأنقياء بلا وداع ولا صخب، فقط نام كما ينام من أتمّ وعده.

نام على وسادته ووجهه نصف مبتسم كأنّه رأى حلمًا أخيرًا ربّما هي، وهي تضحك.

حين وصلهم الخبر انكمشت الدنيا في لحظة واحدة.

هو؟ لا يمكن.

هو الذي كان الحياة بالنسبة لها؟

رحل؟

لكن الواقع لا يستأذن حين يطعن فقط يفعل.

كان وجهه هادئًا، جسده ساكنًا وروحه كانت قد سبقتنا نحو مكان آخر، مكان لا نراه لكنّنا نشعر به.

لم تصدّق ركضت إلى الباب، إلى المكان، إلى السرير الذي كان يومًا حضنًا للسكينة، وجدته هناك كما تركته، ساكنًا. رفعت الغطاء عن وجهه ببطء لم تجد حزنًا، بل راحة كأنه كان يقول لها: "كنت مسؤوليتي وأنتِ الآن قادرة. ما عاد يلزمني أبقى."

وقفت هناك، قلبها يتكسّر بصمت. الدموع لا تنزل لأنّ بعض الوجع أعمق من الدموع.

فهمت.

نعم، فهمت أنه لم يختر الرحيل، لكنّه اختير من الحياة لأنه أنهى مهمّته.

هو الذي التقطها من عتمتها، علّمها كيف تقف، كيف تحب، كيف تنتمي...

ثم نام ولم يستيقظ أبدًا...

الفصل السادس عشر – وحدها من جديد

كانت تجلس في نفس الزاوية في نفس المقهى الذي احتضن أول نظرة وأول صمت وأول بداية لكن هذه المرّة لم يكن أحد في المقعد المقابل. ولا فنجان شاي دافئ ولا ابتسامة في عينيه.

الشتاء لا يزال كما هو رماديّ، ثقيل لكن برده مختلف هذه المرّة، برد لا يأتي من الطقس، بل من الداخل او بالأحرى برد فقد.

نعم، هو رحل لكن لم يتركها بقراره، بل خطفه القدر في لحظة قصيرة، ترَك فيها كل شيء معلّقًا...

الأحاديث، الحُبّ وحتى الحياة نفسها.

لم تبكِ في الجنازة، لم تصرخ، لم تنهار. لكنها الآن...

في هذه الزاوية التي جمعتهما ذات شتاء كانت تنظر إلى الكرسي الفارغ كأنه يبتلعها، كانت تسترجع كل لحظة، كل نظرة، كل مرة لمس يدها بهدوء، كل مرة فهمها دون أن تتكلم.

كانت تتذكر كيف زرع فيها الثقة، كيف علّمها أن الحياة تستحق، أنّها جميلة رغم الخدوش.

"أنت مازلت هنا..." همست في سرّها وهي تنظر إلى فراغٍ مملوءٍ به.

الناس تمشي في الشارع، الحياة تمضي كأن شيئًا لم يحدث لكنها كانت معلّقة هناك في لحظة واحدة تجمع كل لحظات عمرها معه.

لقد غادر لكنّه لم يتركها كما وجدها، غادر بعد أن أعاد بناءها وأضاء روحها،

ثم رحل كالنور حين يغيب بعد أن يكفيك كي لا تضلّ الطريق. أدارت رأسها نحو النافذة رأت المطر ينزل، نفس المطر الذي بلّل دموعها أول مرّة لكنها الآن لم تبكِ، اكتفت بابتسامة خفيفة متعبة لكن صادقة لأنها أدركت رغم كل شيء أن الحب الحقيقي لا يموت فقط يتحوّل إلى صوت هادئ في القلب يقول لك في كل مرة تنهار فيها: "أنا علمتك كيف تقومي... قومي."

نهضت من كرسيّها في المقهى لكن هذه المرة لم تكن تنهض لتكمل يومًا آخر ولا لتبدأ حياة جديدة، بل لتودّع كل شيء

وتمشي نحوه. خرجت بخطى بطيئة كأن كل ذرة في جسدها كانت تعرف ان هذا ليس خروجا عاديا، بل عبور. وقفت أمام باب المقهى للحظة، نظرت إلى المكان، إلى الطاولة التي جمعتهما، إلى الكرسيِ الذي لم يجلس عليه أحد بعده وإلى رائحة الشاي التي باتت باردة منذ رحيله.

ابتسمت ابتسامة خفيفة، ابتسامة وداع لا رجعة بعده ثم وضعت ورقة صغيرة على الطاولة، طُويت بعناية كأنها رسالة كتبتها للقلب الذي كان يومًا مأواها.

ورقة لا يعرف ما فيها إلا من أحبّ بصدق وودّع بصمت...

خرجت من المقهى تمشي تحت مطر خفيف وفي يدها وردة جميلة لكنها ذابلة،

كأنها مرآة لروحها.

الطريق إلى المقبرة لم يكن طويلاً لكنه بدا أبديًا.

وقفت أمام قبره لم تبكِ فهي لم تعد تملك دموعًا لكن عيناها قالت كل شيء.

انحنت ووضعت الوردة على القبر ثم همست بخفة كأن الريح وحدها سمعتها:

"أنا هنا... وسأعود قريبًا... لا تتأخر في استقبالي."

وقفت قليلًا ثم أغلقت عينيها كأنها التقطت آخر صورة لهذا العالم واستدارت.

في طريق العودة بدأت تنهار شيئًا فشيئًا، خطوتها تضعف، قلبها يثقل وأنفاسها تتقطع لكن وجهها كان هادئًا كأنها أخيرًا وجدت الطريق الذي تريد ثم سقطت وسط الشارع، وسط العالم الذي لم يمنحها يومًا أمانًا، سقطت كما تسقط أوراق الخريف في صمت بلا ضجيج، بلا صرخة.

لكنها سقطت بابتسامة ربما لأن اللقاء قد اقترب، ربما لأنها أدركت أن الحياة لم تُعد لها وأن الحب الحقيقي لا يكتمل إلا حين تتلاقى الأرواح بلا جراح،

بلا خوف وبلا فراق...

ربما الآن معًا يمشون تحت مطر آخر في عالم لا يخذل ولا يُفارق...

لا أحد يعلم كم من الأشياء تُكسر داخل الإنسان دون صوت ولا أحد يرى كم من الموتى يمشون بيننا، بقلوب توقفت عن النبض منذ رحيل شخص واحد.

هي لم تكن ضعيفة...

لكنها تعبت من أن تكون قوية في وجه كل شيء.

أما هو...

فلم يرد أن يرحل لكنه رحل كما يرحل الطيّبون دائمًا في صمت وبلا وداع.

زرع فيها الحياة، ثم غادر وهي انتظرته في الحياة حتى غادرتها لتلحق به.

ربما اجتمعا أخيرًا...

لكننا لن نراهما بعد الآن.

كل ما تبقى...

رائحة شاي بارد، وكرسي شاغر، ووردة ذابلة على قبر.

ونهاية...

لا تشبه النهايات...

تمت بإذن الله

"إلى أولئك الذين سئموا النهايات السعيدة المصطنعة...

إلى من يدركون أن بعض الحكايات لا تُغلق بالابتسامة، بل بالخذلان.

إلى الأرواح التي تذوقت طعم الرحيل قبل أن تكتمل اللحظة...

هذه الرواية كُتبت لكم.

لمن وجدوا الراحة في الغياب،

والصدق في الفقد،

والنهاية... في الموت لا في الحب."

